رئاسة للموارنة غير مارونية !

بقلم ادمون صعب

(جريدة النهار ٢٧/١٠/٢٠٠٠)

"كان لا بد اثر الهزيمة العربية في معركة فلسطين الاولى، ان ترحل العهود في المنطقة الى غير رجعة، او على الاقل، ان تسقط الحكومات. غير ان الانهزام في هذه المنطقة غالباً ما يكرّس الانظمة ويحمي الحكام".

(سامي الصلح رئيس وزراء لبناني سابق)

تابع اللبنانيون، باهتمام بالغ، مؤتمر القمة العربي الذي عقد أواخر الاسبوع الماضي في القاهرة للبحث في الوضع المتفجر في فلسطين المحتلة، حيث تتصدى الدبابات والصواريخ لانتفاضة شعب يقاوم بالحجارة، ولكنه لا بد منتصر... وإن طال الزمان.

وفيما الخُطَب تتدفق في القمة، كانت الصواريخ وقذائف الدبابات تحوّل ليالي المدن الفلسطينية، كالناصرة وبيت جالا، فضلا عن المخيمات، نهاراً يذكّرنا بالقصف السوري للأشرفية في أحداث الثمانينات. وزاد تعاطف اللبنانيين مع الفلسطينيين تحذير نائب رئيس الاركان الاسرائيلي منتفضي الاقصى من تحويل اسرائيل لبنان ثانيا، مهددا بتحويل المدن والمخيمات الفلسطينية ميدان حروب على غرار ما فعله الفلسطينيون في لبنان.

في هذه الاجواء تحدّث الرئيس السوري بشار الأسد في القمة، وكان خطابه ملفتا ومركّزاً وواضحاً في مقاصده الى درجة يصعب عدم مواكبته، في حين ارتجل الرئيس العماد اميل لحود كلمة مقتضبة أثارت الاستغراب وأوحت ان لبنان كان حاضراً وغائباً في آن واحد، وإن جرى ايضاح الأمر لاحقاً بأن الرئيس لم يكن في الجلسة الاولى على لائحة المتكلمين لذلك لم يحضر خطابه معه!

ولقد استوقف متابعي الرئيس السوري، وهو يلقي كلمته، خروجه على النص المعد له في دمشق، وتدوين ملاحظات وردت على فكره خلال الجلسة، فطرحها ومنها ضرورة "القراءة الجيدة والمتأنية" لأي وضع نريد تغييره وتقرير سبل مواجهته، مستعينا بمثال المقاومة في الجنوب التي "قرأت" الواقع الاحتلالي المطلوب تغييره وحددت وسائل التغيير معتمدة على الارادة والايمان، الى جانب السلاح، مشيراً الى المجتمعين بضرورة قراءة الواقع الاحتلالي والاستيطاني في فلسطين ثم تقرير أدوات المواجهة الفاعلة لتغييره والتغلب عليه.

من هذه النقطة الجوهرية في خطاب الرئيس السوري الذي تابعه كثيرون باعجاب، نريد ان نطل على الواقع السياسي اللبناني الذي نريد للرئيس بشار ان "يقرأه" في ضوء معطيات جديدة ابرزها اندحار الجيش الاسرائيلي بفعل بطولات المقاومة وضرورة تعميم ايجابيات هذا الحدث على الواقع الانقسامي للبنانيين، ولكن ليس افقياً: لبنانيون مع سوريا ولبنانيون ضدها، كما ينظّر لذلك حلفاء دمشق امثال الوزير سليمان فرنجية والوزير السابق الياس حبيقة، وذلك نظراً الى عدم وجود عداء لبناني في المطلق لسوريا لا بين المسيحيين ولا بين المسلمين، وإن يكن هناك من "شذ" من المسيحيين في غمرة الصراع مع الفلسطينيين ودخول سوريا طرفاً داعماً لهم، فظن خطأ ان في وسعه الاستعانة بالعدو لاستثماره لمصلحته في الصراع الداخلي. وهذا كان خطأ مميتاً لكنه انحصر في مجموعات قليلة فشلت في جر الاكثرية الساحقة

وراءها الى الانتحار. لذلك ليس هناك انشطار افقي. وكانت هناك قراءة مسيحية معينة، عقلانيـــة وموضوعيـــة، التقـــت وقراءة سورية، كانت عقلانية كذلك في مرحلة ما، ولكن التطورات الاقليمية، ويا للاسف، ما لبثت ان شوهتها.

واذا لم يكن هناك انشطار لبناني افقي حيال سوريا، فإن ثمة انقساماً عمودياً حيالها يتعلق بارادة اللبنـــانيين جميعـــاً ان تكون لهم حرية القرار. ولا فرق في هذا الشأن بين مسيحيين ومسلمين، وهذا مبدأ مكـــرّس ومعمّـــد بـــالدم مـــن ايـــام العثمانيين والانتداب الفرنسي. فحرية اللبنانيين وتمسكهم بسيادتهم واستقلالهم هما ما زرعهم في ارضهم وشدهم اليـــها، وها هم بدأوا يهجرونها بمعدل مخيف بلغ ١٦ الفاً شهرياً، مما يهدد بافراغ لبنان من سواعد بنيه وعقولهم في ســـنوات قليلة، محمّلين المسؤولية للقراءة السورية الخاطئة للوضع اللبناني.

وفي اطار هذه القراءة الخاطئة التي تقوم على اخذ الكل بجريرة الجزء، أقر الطائف، وأُبقيت القوات السورية حيث هـــي، خلافاً له، مروراً بتنصيب الرؤساء – والتخلص منهم – وتأليف الحكومات واختيـــار وزراء واســـتبعاد وزراء، ووضـــع "فيتو" على زعماء وشخصيات معينين، فضلاً عن تكريس وزراء ثوابت – كما في متاحف الشمع – ومنع محاســـبتهم الا نادراً ثم الاعتذار منهم. وبموجب هذه القراءة السورية الخاطئة تساوى الفريق الذي تعتبره سوريا مخالفاً لها في لبنـــان، ورافضاً التبعية، بالفريق الصهيوني الذي تقاتله هي ونقاتله نحن ويستشهد المقاومون في سبيله. وقـــد بلغـــت الوقاحـــة احيانا في بعض المتزلفين للنظام السوري حد نعت مواطنيهم المخالفين لدمشق بـــ"المتصهينين".

وكان قانون الانتخاب احد ادوات تنفيذ هذه القراءة السورية الخاطئة. وهو استهدف فرز المواطنيـــن وتفقيـــس زعمـــاء وتنصيب امراء ينصاعون للارادة السورية، الى ان جاء الرئيس العماد اميل لحود الى رأس الســـلطة، ترافقـــه الامـــال والادعية بالتغيير والانقاذ.

ومنذ اليوم الاول بدا الرجل انه ليس رجل سياسة، وان ثمة ماكينة تعمل لاجله في السياسة والاعلام والامن وحتى فـــي الاقتصاد والادارة.

وبدلا من انقاذ البلاد واصلاح العباد فُتحت جبهات عدة للانتقام الحقود، باسم الرئيس غير السياسي، من رمـــوز العـــهد الماضي الامر الذي قذف بهؤلاء مجددا الى الحضن السوري، واقتصر كبش المحرقة على وزير النفط شاهي بارسوميان.

وبقراءة خاطئة جديدة للوضع اللبناني، المسيحي والمسلم على السواء، جرت الانتخابات، فواجهت التدخـــلات الســـورية انتفاضة بين السياسيين، كما في الرأي العام، ووجهت انتقادات قاسية للاجهزة اللبنانية والسورية التي خيّل للبعض انـــها تعمل لمصلحة الرئيس بغية اضعاف اخصامه، إن تعذر اسقاطهم، والشواهد كثيرة. ولان الانتخابات، مهما يكـــن قانونـــها سيئا، هي الميدان الاساسي للمحاسبة السياسية، فقد انتهى الامر بانتصار التيارات المعارضـــة لنـــهج حكومـــة العـــهد وللرئيس كذلك. وكانت القراءة الواقعية والعقلانية تقضي هنا باتخاذ الرئيس واحدا من قراريـــن: الاســـتقالة او التســـليم بالواقع الجديد.

وقد اظهر تأليف الحكومة الجديدة مقدار تسليم الرئيس بنتائج الانتخابات من جهة، وباستمرار الدور السوري في تـــأليف الحكومات وفرض الوزراء، بصرف النظر عن الاوضاع الاقتصادية والمعيشية المتردية، فضلا عن الاخطار التي تتـــهدد سيادة البلاد وسلامة المواطنين.

ولم تتردد مراجع سياسية وغير سياسية علناً في التساؤل عما اذا كان لا يزال ضروريا ان يكـــون رئيـــس الجمهوريـــة مارونيا ومحسوبا على طائفته، اذا كانت طائفته لا تتلقى سوى سلبيات هذا المنصب، وما دام الرئيس عاجزاً عن تـــأمين

مشاركة واسعة في السلطة، وازالة "الحرم" و"الفيتو" عن شخصيات يشكّل وجودها في الحكم مصدر ثقة وعامل توازن واطمئنان في مجتمع تعددي تصعب طمأنته وكسب ثقته خارج التوازن والتكافؤ؟

واسترسلت المراجع في التساؤل: هل تم اختيار الرئيس لأنه يصلّب بالخمسة، ام من اجل ان يستوحي القيم التي تربى عليها فيفرض العدالة والحرية والنزاهة والتجرد، ويقرّب الى الحكم من يشبهه، وإلا انتفت الحاجة الى ماروني في رأس السلطة؟

وقالت ان الرئيس مسؤول دستوريا وعرفيا عن شريكيه الاساسيين في الحكم، ويجب الا يطلب شيئا لنفسه – كما كان يفعل الرئيس سليم الحص – ويفرض على شريكيه الآخرين التزام هذا الامر، حتى يأتي الى الحكومة الاكفياء والاقوياء الذين يوحون الثقة ويستحقون دعم الشعب لهم.

وفي جو السقوط هذا الذي ترجم باضاعة سنتين من عمر العهد، انتفض الشعب، كل الشعب، المسيحي والمسلم على حد سواء، حيال الطبخة الوزارية التي احسن المسربون صنعا بجعل الرأي العام يضغط على الطابخين ويشارك في تعديل التركيبة على امل تحسينها. وإن يكن لم يستطع زحزحة الثوابت – وبعضهم يعتاش وازلامه من الوزارات – الا انه رفع عصا غليظة في وجه اللاعبين والسحرة الصغار، ازلام الكبار، منذراً بان المسألة لم تعد تحتمل، وان سياسة كبس الازرار والتلطي والتستر قد باتت مفضوحة، وان عهد التوجيه من بُعد (الريموت كونترول) قد شارف نهايته، وان بيان المطارنة سيبقى المرجع في "القراءة" الواقعية والعقلانية للوضع الداخلي وللعلاقات مع سوريا، وان الباب المنخفض الذي اضطر السياسيون الطامعون بجنة الحكم الى "تنكيس" هاماتهم من اجل دخوله، تخلّع، وقد لا تنفع الحكومة الاستعانة بـ"اكياس رمل" طائفية، بديلا من الشركاء الحقيقيين، لرد طوفان الغضب الشعبي على التهميش والتجاهل و"الفيتو".

ان "القراءة" الواقعية والعقلانية مطلوبة الان من الرئيس السوري الذي اقترح على قمة القاهرة الاخذ بها لتغيير الواقع المأسوي في فلسطين، بعدما أفضت القراءة اللبنانية للوضع الى وجوب خروج الجيش السوري من لبنان خطوة سياسية اولى لاعادة ترتيب العلاقات اللبنانية السورية وازالة التشوهات التي اعترتها، لينحصر وصف العدو باسرائيل دون سواها، لان ليس في لبنان اعداء لسوريا كما يوهمها المتزلفون.

==========